كيف الانتقال من انتفاضات الفجر الكاذب إلى ثورات الفجر الصادق

الحلقة الثانية

فجر ليبيا: المخاض العسير

تمهيد

من اللافت على الصعيد السياسي، أن الاستجابة لمطالب المنتفضين من طرف الجيشين في كل من تونس ومصر اتسمت، ومنذ إمساكهما بزمام السلطة في البلدين، ببطء كبير، أشبه ما يكون بسير

السلحفاة، بل ومراوحة المكان في أحايين كثيرة بالتقدم خطوة والرجوع إلى الوراء خطوة أو خطوتين، وأتت دائما متأخرة، ولم تتم سوى تحت ضغوط المتظاهرين، وخروجهم مجدداً إلى الشارع.

وزاد الطين بلة، أنه حتى عندما كانت تتم هذه الاستجابة فالملاحظ أن المعالجة اتسمت في أحايين كثيرة بمنطق المكيالين:

أ) حال تقديم عتاة رموز النظام السابق أمام محاكم مدنية وصغار المخالفين أمام محاكم عسكرية!،

ب) وحال بقاء رموز الإعلام السابق في البلدين على رأس نفس المؤسسات، متقلبين بحربائية لافتة من معارضين جذريين للانتفاضة وأهدافها إلى مشيدين بها وبمن أطلقوها، بل وبالتحول 180 درجة، بتبني مواقف المنتفضين، التي حاربوها من قبل، بدون تحفظ!، ....

وهو ما ظل يشوش على مسار الانتفاضة ويلقي بظلال غائمة على دعوى الجيشين احتضان الثورتين قلباً وقالباً بدون تحفظ، كما هو معلن من طرف الجيشين، ويجعل النواة الصلبة للمنتفضين تساورهم شكوك كبيرة في إخلاص نوايا الجيشين الحقيقية!.

وقد تولد عن هذا التصرف المريب أزمة ثقة واحتقان بين الطرفين، لا يصبان في المصلحة العليا للبلدين، لأنهما يطيلان من حالة الاحتقان والتضجر، ويعرضان اقتصادي البلدين الهشين أصلاً إلى التردي أكثر فأكثر على المنحدر الكارثي المفضي لا محالة إلى السكتة القلبية.

الأمر الذي يعيق تعافي الاقتصاد ويزيد من هشاشة التماسك الاجتماعي معمقاً للأزمة ويجعل إمكان استئناف الحياة العادية، أمراً مؤجلاً باستمرار، خصوصاً في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية المستعلنة في الأفق، على ما تشهد له المظاهرات الاحتجاجية الصاخبة التي حصلت في أثينا ثم في لندن أخيرا ضد سياسة التقشف التي لا مناص للحكومتين اليونانية والبريطانية، ونظيراتهما الأوروبيات، من انتهاجها لزاماً، من أجل الخروج من نفق مديونياتها العالية.

وهي نذر تسبق العاصفة المنتظر أن تهب رياحها العاتية على اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، الذي ينوء، ويا للهول!، تحت مديونية هائلة بلغت خمسة أضعاف (75 تريليون دولار) إنتاج أمريكا الوطني (14 تريليون دولار)، جارة معها في تهاويها نحو الإفلاس المحقق، الذي لا مفر عنه، الاقتصاد العالمي برمته.

وقد ميز الانتفاضة الليبية بشكل خاص، بغض النظر عن هذا المؤثر الكوني العام القابع في الخلفية، تشابكها مع اقتصاديات البلدين الجارين من خلال عاملين مهمين:

أ) التجارة البينية المهمة لليبيا مع البلدين، حيث أنها في صالح الجارتين بصفتهما مصدرين بالأساس،

ب) العمالة الكبيرة للبلدين في ليبيا التي تدر أموالاً طائلة على خزينتيهما والتي خسراها الآن، ويكفي التذكير هنا أن لمصر حوالي مليون عامل بليبيا، كل عامل يعيل عائلة مكونة على الأقل من أربعة أفراد، مما يعني أن الاقتصاد المصري أصبح عليه، وهو المثقل أصلاً، أن يعمل على إعالة أربعة ملايين من أفراده بدل رفدهم لخزينته!

وظاهر من تعثر الانتفاضة الليبية في إحراز نصر سريع على مجنونها، أن الأمل في إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه قبل الانتفاضة أصبح أمرا مستبعدا في القريب المنظور، ما لم يتم التخلص بأسرع ما يمكن من الرجل ونظامه.

وبهذا الميزان، فلئن جنب انحياز الجيشين إلى الانتفاضتين في كل من تونس ومصر، وعلى ما شابهما من تلكؤ في حلحلة الأمور والقطيعة بسرعة مع الماضي، ما لا تحمد عقباه وأنقذهما حتى الآن من حرب أهلية محققة لا تبقي ولا تذر، وصان دماء الشعبين، فالأمر للأسف، مختلف تماماً بالنسبة لليبيا، حيث لا دولة هناك ولا مؤسسات، وإنما شراذم من كتائب قبلية تابعة للديكتاتور تحميه وحده ومرتزقة دوليين يساعدونهم في مهمتهم القذرة.

وقد بات واضحا في الحالة الليبية بشكل خاص استحالة إمكان لجوء منتفضيها إلى نوع الحل الذي سلكته قبلهم كل من تونس ومصر لأسباب عدة، لعل أهمها خمسة:

أ) افتقاد الدولة،

ب) افتقاد جيش وطني احترافي محدد المهام،

ت) اتساع البلاد، حيث تبلغ مساحة ليبيا مليون وثمانمائة كلم^2، وتباعد المدن بعضها من بعض، حتى أن طرابلس تبعد عن برقة أكثر من خمسمائة كيلومتر تتخللها مساحة شاسعة من الفيافي الصحراوية في حوض سرت. وتعتبر هذه الصحراء من أهم الحواجز الطبيعية في العالم.

ث) تدني الكثافة السكانية، كما توضح الخريطة التالية،

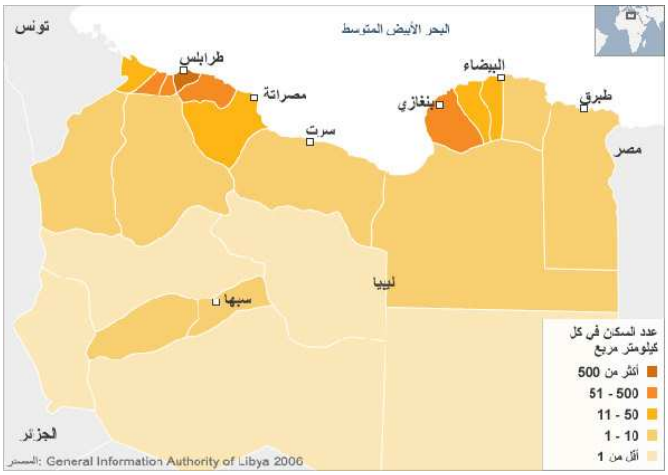

حيث أكبر كثافة سكانية تتواجد حول مدينتي بنغازي وطرابلس بالتحديد، وتبلغ حوالي 500 نسمة في الكيلومتر المربع.

ج) البنية القبلية للمجتمع الليبي.

ولئن أمكن التوقع بدقة بأثر العوامل الأربعة الأولى على الحياة الاجتماعية والاقتصادية ويتطلب بالتالي دراسته ببعض تفصيل للوقوف على تأثيره السياسي.

القبائل الليبية بين الوحدة والانقسامية

قد نعجب أن تلعب القبيلة في المجتمع الليبي، وفي القرن الحادي والعشرين، دورا محوريا وبارزا في تثبيت أركان نظام القذافي، الذي يقوم على عكس ما يدعيه في كتابه الأخضر، على التحالفات القبلية أكثر من اعتماده على الجماهير الشعبية, التي لا وجود لها سوى على الورق,

وهو ما يعني أن رفض الخيم القبلية مد القذافي بالدعم السياسي المطلوب يفضي بالضرورة إلى فك غزل نظامه وانهياره من تلقاء ذاته.

ويتكون نسيج القبائل الليبية من ثلاثة عناصر:

أ) القبائل العربية الهلالية وبني سليم،

ب) والقبائل الأمازيغية الصرفة،

ت) والقبائل الأمازيغية المعربة،

وأبرز القبائل المؤثرة سياسيا في **ليبيا** اليوم {أنظر

الخريطة} أربعة:

- **قبيلة الورفلة**: أكبر القبائل، والأكثر انتشارا على الأراضي الليبية، التي يتجاوز عدد أفرادها اليوم المليون نسمة (حوالي سدس سكان ليبيا) وتتمركز أساساً بمنطقة فزان في الجنوب والجنوب الشرقي للعاصمة طرابلس, كما يوجد لها حضور أيضا في بنغازي وسرت.

- **قبيلة القذاذفة**: التي ينحدر منها معمر القذافي وتتمركز أساساً بمنطقتي **سبها** في وسط البلاد و**سرت** غرب طرابلس.

يرجع نسب قبيلة القذاذفة إلى جدهم الأعلى موسى المعروف بـ عمرو **قذاف الدم** المقيم بمنطقة العربان، في نواحي غريان .

وقد نزحت قبيلة القذاذفة من **غريان** إلى سهول **سرت** منذ ما يزيد عن 300 سنة، حيث لا زالوا ينتجعونها إلى اليوم بينما هاجر فريق منهم إلى **تشاد** عقب الاحتلال الإيطالي، ثم عادوا ليقيموا في **فزان**.

ومنذ استيلاء القذافي على زمام الحكم في ليبيا أصبحت هذه القبيلة الأكثر تسليحا بين كل القبائل الليبية، لاعتماد القذافي عليها في حمايته وأسرته.

وقد انقلبت أحوالها بين عشية وضحاها وأصبحت تسيطر أمنيا، وعسكريا، وسياسياً، واقتصاديا، وإعلاميا على كل مرافق الحياة.

فالقذافي وأبناؤه الأربعة: سيف ، وخميس ، والمعتصم ، والساعدي ، يتحكمون بمعية الكثير من عناصرالقبيلة في الجيش، والأمن، وكل مؤسسات المجتمع المدني، كما يتحكمون في الإتصالات بكل أنواعها، وحتى في النوادي الرياضيه،.....

والأدهى هو أن ما من مدينة ليبية إلا ويشرف عليها في الواقع ضابط كبير ينتمي لهذه القبيلة بالإضافة إلى المناصب الوسيطية الأخرى التي تحتكرها هذه العصبية.

فاحتكار السلطة والاستحواذ عليها من طرف القذافي وتبويئ قبيلته الصدارة يجعل من دعواه العريضة في حكم الجماهير أنفسهم أكبر تزييف للحقائق على الأرض.

- **قبيلة المقارحة**: التي ينحدر منها **عبد السلام جلود** الرجل الثاني في النظام الليبي الذي أبعد نفسه من الساحة السياسية لاختلاف مع **القذافي** سنة **1993**, وقد خلفه العقيد الدموي: **عبد الله السنوسي** كرجل ثاني.

وينتمي أيضاً إلى هذه القبيلة: **عبد الباسط المقرحي** المدان سنة **1989** م في قضية الطائرة التي سقطت في **لوكربي** ب**اسكوتلندا** ، والذي أطلق سراحه في صفقة بين القذافي وبريطانيا أثارت الكثير من الجدل.

وتتمركز هذه القبيلة بمنطقة **وادي الشاطئ** في الوسط الغربي لليبيا، وهي أيضاً من أكثر القبائل الليبية تسليحا أسوة بالقذاذفة.

- **قبيلة ترهونة**: وهي مظلة تضم الكثير من القبائل الفرعية وتتمركز في منطقة **ترهونة** في الجنوب الغربي لمدينة **طرابلس**, ويشكل المنتمين لهذه القبيلة ثلث سكان العاصمة **طرابلس**، كما أن الكثير من القوات المسلحة الليبية ينتمون إليها وهي أقل تسليحاً من السابقتين.

- **قبيلة العبيدات**: التي ينحدر منها وزير الداخلية السابق في نظام القذافي: **عبد الفتاح يونس** ، الذي أعلن انفصاله عن هذا النظام ملتحقاً بالثوار في بنغازي والذي تم تعيينه أخيراً رئيس أركان جيش الثوار. وتتركز في أقصى الشرق الليبي بمنطقة الجبل الأخضر، و**عبد العاطي العبيدي** الذي شغل مناصب: أمين المؤتمر الشعبي العام (رئيس البرلمان)، وأمين الشؤن الأوربية وأمريكا الشمالية باللجنة الشعبية العامة للاتصال الخارجي والتعاون الدولي، والمندوب السامي الليبي في تونس، والمندوب السامي الليبي في إيطاليا، والمبتعث حديثاً من طرف القذافي إلى أثينا للبحث عن مخرج لنظام العقيد من مأزقه مع شعبه، الشعب الذي لا يرضى بديلاً عن التخلص منه حيا أو ميتاً هو وباقي أسرته.

- **قبيلة زناتة**: وتتواجد حول مدينة **الزنتان** بمنطقة الجبل الغربي. وهي قبيلة تاريخية لعبت دوراً كبيرا في تاريخ الشمال الإفريقي وأمدته بدول عظمى كدولة **المرينيين**.

- **قبيلة الطوارق**: المنتشرة في الصحراء الكبرى والمتوزعة بين عدة دول أفريقية, ويتواجد فرعها الليبي في مدينة **غات** بأقصى الجنوب الليبي، وهي قبيلة حوربت لسنين من طرف نظام القذافي، وحرم أفرادها من أبسط حقوق المواطنة، مثل الرقم الوطني وجواز السفر.

- **قبيلة أولاد سليمان**: وهي خيمة تجمع عدة قبائل صغيرة تتمركز في مناطق **سرت** و**فزان**، ولها امتدادات في كل من: تونس، وتشاد، والنيجر، ومصر.

و يندرج **القذاذفة** في الحلف القبلي المعروف بـ **الصف الفوقي** أو صف **أولاد سليمان** تحت زعامة سيف النصر الذين ظل القذاذفة على الدوام موالين لهم وفي صميم عصبتهم قبل أن يقلب القذافي هذه المعادلة، ليصبح الجميع تابع مكرها لقبيلته القذاذفة.

وغيرها من القبائل.

ولا شك أن احتكار السلطة، واستحواذ قبيلة أو لفيف من القبائل على دفة الحكم ضدا على الباقين في مجتمع قبلي، يعد أهم محفز للثورة على هذا الواقع من طرف باقي القبائل المتضررة.

لذلك أمكن اعتبار انتفاضات الليبيين على هذا الوضع الشاذ من باب تحصيل الحاصل.

وقد ارتبط بهذا الإجحاف السياسي إجحاف اقتصادي عمل على محاباة المنطقة التي يتواجد بها القذاذفة على حساب المنطقة الشرقية والمنطقة الغربية الملتصقة بالجبل الأخضر والمرتكزة حول مدينة الزاوية، اللتين تقع بهما معظم موارد النفط والغاز الليبية، كما تبيين الخريطة التالية.

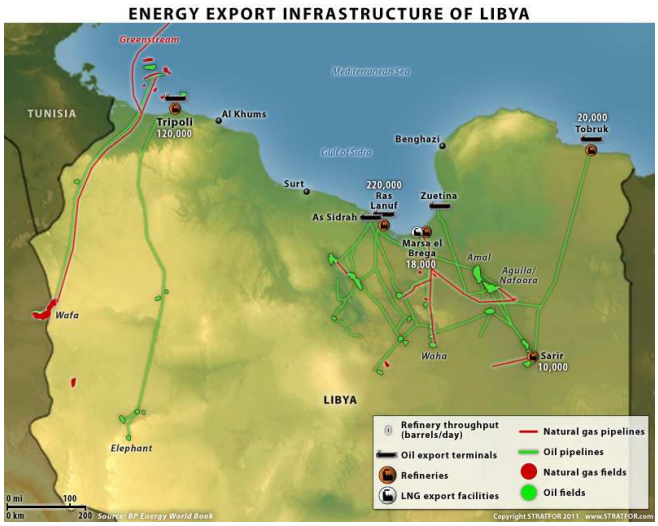

ويؤكد هذا الرفض كون الشرق الليبي تقطنه قبائل لعبت دوراً تاريخيا كبيراً في مقاومة الإيطاليين في عشرينات القرن العشرين التي قادها المجاهد عمر المختار 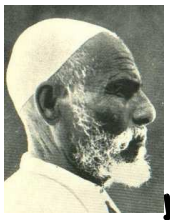 **الذي اتخذ من مدينة برقة (بنغازي) مركزا لمواجهة السيطرة الإيطالية.**

وقد قاوم الشرق الليبي استبداد القذافي في سبعيات القرن الماضي وأقض مضجعه وجعله يوقن بكرههم اللامحدود لحكمه.

لذلك، لم يكن غريباً أن تنطلق الانتفاضة من بنغازي على خلفية موت أقاربهم الألف والمائتين الذين قتلوا في سجن في طرابلس عام 1996 ولم تسلم رفاتهم إلى أهاليهم.

والملف هو أن هذا الواقع الجغرافي والسكاني واللوجستي الصعب لم يثبط من عزم المنتفضين الليبيين، من ركوب موجة التغيير التي داهمت العالم العربي، معتبرين أنها فرصة تاريخية لن تتكرر، حيث تم إسقاط طاغيتين حليفين للقدافي، ومرتبطين معه بمعاهدات أمنية، على حدودهما الغربية والشرقية والبحث عن طريق خاص بهم للخروج من مأزقهم، وهم يعلمون علم اليقين أن مجنونهم لن يتردد طرفة عين في محاولة إجهاض انتفاضتهم وقمعها بدون هوادة أو رحمة على ما تعهد به بصلف أمام العالم ونفذ.

والأثر المباشر لهذا الانتفاضة التي تؤكد كل المؤشرات على الأرض أنها قد يطول أمدها، ما لم يرحم الله هذا الشعب المؤمن بتخليصه من مجنونه، هو شل الاقتصاد الليبي برمته لتوقف ضخ النفط، وتوقف الخدمات لفرار ملايين العمال والفنيين الأجانب خارج ليبيا ناجين بحياتهم وتاركين كل شيء وراءهم، خالقين بفرارهم شلا لكل المرافق، ومشاكل إضافية لكل من تونس ومصر في العاجل والآجل.

وللتركيبة العشائرية للمجتمع الليبي، على خلاف تونس ومصر، فالانتفاضة الليبية لا بد وأن تأخذ في الاعتبار العامل القبلي وتوظفه في معركتها بتوحيد جهودها في الإجماع على الإطاحة بالطاغية، فاكة لغزل مجنونها الذي وظفه لصالحه بانتهاج سياسة: فرق تسد.

ذلك أن القذافي لَمْ يُدرْ ليبيا لما يناهز 42 سنة معتمدا فقط على حمقه ونزقه البين، وعلى ضبابيته التنظيرية المؤطرة بأفقه المعرفي الضحل، وبجنون العظمة الذي ظل يسكنه، بل جهد في إيجاد

دعم لحكمه في الداخل والخارجُ ووظف فيه الثروة البترولية التي ظلت تدر عليه قرابة الخمسين بليون دولار كل سنة، يشتري بها الذمم مكافئا لأصدقائه وملحقاً أقصى الأذى بمناوئيه وأعدائه.

والناس سراع إلى الدنيا كما يعلمنا التاريخ.

لذلك، فانتظار سقوطه، كأي طاغية، بمجرد الانتفاضة عليه، وهو الذي أعد نفسه لمثل هذا الاحتمال، لن يكون يسيراً، خصوصاً وأن معارضيه، وعلى كثرتهم، لم يبدأ يلتئم شملهم سوى مع بداية الانتفاضة، ولم يشرعوا في تنظيم أنفسهم سوى مع انطلاق انتفاضة الشباب منتهزين للفرصة التاريخية التي حررت جيرانيهما، ولو على استحياء حتى الآن، في كل من تونس ومصر.

ولهذا الضعف البنيوي الذي عانت منه المعارضة، فلم يكن من المنتظر أن تتغلب على عدوها الأكثر أموالاً وعتادا وتنظيما ووحشية وجرأة على سفك الدماء، حتى أنه كاد أن يقلب على الثوار الطاولة بكتائبه المدججة بالسلاح الثقيل ويسترد الشرق الليبي كله من يد الثوار الممتلئين حماساً والقليلي العدة والعتاد، لولا أن تدخل الحلفاء الغربيون وقلموا أظافر الطاغية ولو إلى حين، إلا ليعاود الكرة من جديد، قبل أن يشرع الثوار في إعادة تنظيم أنفسهم ومدركين أن الحسم سيأخذ منهم جهدا ووقتا وتضحيات.

انتهى وتليه الحلقة الثالثة

فجر المغرب